الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن

[الفنارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٦ —

بعد أوبته من إيطاليا :

آب ملتن إلى وطنه بعد أن غاب عنه سنة وثلاثة أشهر ! وكانت الحرب بين انجلترة واسكتلندة فى أولى مراحلها ؛ وكانت السياسة الداخلية دائبة فى عصفها لا تكاد تجنح إلى السكون حتى تهب ريحها عاتية من كل جانب .

وكان يتوقع منه بادى الرأى وقد آثر العودة إلى بلاده على المضى فى رحلته حياء منه ، كما ذكر ، أن يستمتع بالرحيل والأحرار فى وطنه يعانون ضروب البلاء ، أن يلقى بنفسه فى غمار السياسة أنفة منه وحفاظا ودفاعا عن الحرية التى يعشقها والتى ركب فى فطرته الميل إلى نصرتها ؛ ولكنه ركن إلى الدرس ولاذ بالعزلة كما كان يفعل قبل رحيله .

وقد ملأ الحزن جوانب نفسه على صديقه ديوداتى ، وآله ألا يجد مكانه من يستطيع أن يفضى إليه بأنباء رحلته ، ويظهره على ما لقى أثناءها من حفاوة وما اكتسب من حسن السمعة وذهاب الصيت .

والتمس العزاء لنفسه فى مرثية كتبها فأدى بها حق الوفاء لصديقه . وقد اختار لها اللغة اللاتينية كما اختار لها الجو القروى وصور الرعاة وحياتهم ، والذين يعرفون اللاتينية ممن كتبوا حياة ملتن على اتفاق أنها من حيث الفن فى ذاته لا تنزل عن مستوى مرثيته ليسيداس ؛ وأنها من حيث العاطفة أعمق وأصدق من أختها لأن صلة ديوداتى بملتن كانت أوثق من صلة كينج به ، فقد كان ديوداتى قرينه منذ صغره وأقرب خلانه إلى قلبه وأشدهم محبة له ؛ وأخذ ملتن يذكر له فى مرثيته ما كان يحب لولا أن طواه الموت أن يلقيه على سمعه ؛ وجعل ملتن من نفسه ومن صاحبه راعيين كما فعل فى ليسيداس ، وأثنى على خلال صاحبه ولا سيما وفاءه وذكاءه ومرحه وتألم أن كان بعيداً عن وطنه فى غير ضرورة ملجئة فلم ير نهاية صديقه . وأشار ملتن فى هذه المدينة إلى أنه سوف يجد العزاء فى الشعر فيكتب إلياذة عن تاريخ قومه وأساطيرهم جاعلا الملك أرثر وفرسانه أبطال ملحمته متخذاً اللغة الإنجليزية أداته ؛ ولكن هذه الملحمة التى وعد بها ظلت مجرد وعد فقد صرفته عنها شواغل السياسة والدين كما صرفته عن الشعر جميعاً اللهم إلا بضع مقطوعات قصيرة زهاء عشرين عاما ...

وكما أطلق ملتن على ادوارد كنج اسم ليسيداس أطلق هنا على ديوداتى اسم دامون ؛ وكان دامون من مشاهير الفلاسفة ورجال الموسيقى بأثينا ، وكان صديقا وأستاذاً لبركليس ؛ وقيل إنه كان كذلك أستاذاً لسقراط ، وكان مضرب المثل فى الوفاء ، فقد اقترف أحد أصحابه جريمة كان قصاصها القتل ، وعول ملك سيراكوز على قتله فاستأذنه أن ينصرف ليقوم على بعض شؤون أسرته ثم يعود لينفذ فيه القصاص . وتقدم دامون فرضى أن يكون رهينة عند الملك ليقتله بدل صاحبه إن لم يعد فى موعده ؛ وحل الموعد وهم الملك بقتل دامون فجاء صاحبه معجلا فأنقذه ؛ وأثر وفاء الرجلين فى نفس الملك فعدل عن قصاصه وطلب إليهما أن يكونا ثالثهما فى هذه الصحبة الوثيقة [1] .

ونجد فى اختيار ملتن هذا الإسم لصاحبه شاهداً من شواهد فنه ، فهو يلمح كما ذكرنا من قبل إلى المعنى الواسع بالكلمة الواحدة ...

واختتم ملتن مرثيته بإشارته إلى موت صاحبه ولم يتزوج ، فذكر الحب وقال إن من حق الشباب أن يحب ، وأن الذى يذوق طعم الحب وقد تقدمت به السن يذوق طعم الحسرة مضاعفا ؛ ثم يبشر صاحبه بأنه سيلقى فى الجنة خير العوض عما فاته فى الدنيا فسيستمتع بزواج خالد فى عرس بهيج من أعراس الفردوس .

ويجد بعض الكتاب فى ذكره الحب وأنه من حق الشباب وفى تأله على موت صاحبه ولم يتزوج تلميحا منه إلى حالته هو ،

(١) (الرسالة) : هذه القصة هى بعينها قصة حنظلة وشريك بن عمرو والنعمان ! راجع (الميدانى) فى شرح المثل : إن غداً لناظره قريب .

وإن خفي هذا التلميح ، ويقولون إن ملتن كان يفكر يومئذ في الزواج وإنه قد مل أن يعيش أعزب .

على أنه يعود إلى القراءة في إقبال لا يقل عن سالف إقباله عليها أثناء مقامه في هورتون ؛ وقد اتخذ له بعد أوبته من إيطاليا مسكنا في لندن فلم يعد إلى القرية . ورضي أبوه الشيخ أن يمده بما يطلب من المال وإن كان لا يزال يعجب ويتألم ألا يتخذ ابنه عملا إلا مالا يبرح يردده من تثقيف نفسه ليكون أهلا لما يستشرف له في دنيا الأدب ؛ وراض الرجل نفسه على سماع هذا وعلى الجود بما يطلب ابنه من المال . والحق أن ابنه لم يطلب منه كثيراً فما كانت به حاجة إلى متع الحياة ولذاذاتها مما يتطلب مالا كثيراً وحسبه من المال ما يشترى به قوته وما يلزم له من الكتب وما يدفع منه أجر مسكنه ...

وضاق المسكن الجديد بكتبه ما اقتناه منها في هورتون وما اشتراه من إيطاليا ، فاتخذ له مسكنا أوسع منه في أطراف المدينة. وهناك عكف على القراءة والدرس تاركا الشؤون العامة إلى « عناية الله أولا ثم إلى من وكل إليهم الناس القيام على هذه الشؤون » .

وأشرف ملتن في مسكنه الجديد على تعليم ابنى أخته وقد قبلهما ليقيما عنده بعد موت أبيهما وزواج أمهما من غيره ، وما لبث أن ضم إليهما عددا من أبناء أصحابه الأقربين ، وأقبل على تعليمهم جميعا في حماسة ولذة لا تقل عن شغفه بالقراءة والدرس . ولقد عجب دكتور جونسون من عمله هذا وسخر منه فأشار إليه بقوله : « إنه ينظر بشيء من الفكاهة إلى ذلك الرجل الذي يبادر بالعودة إلى وطنه لأن قومه يكافحون في سبيل الحرية ، ولكنه لا يلبث وقد بلغ ميدان العمل أن يدع وطنيته تتبخر في مدرسة يفتحها في بيته » .

وأقبل ملتن على تعليم هؤلاء الصبية وعلى القراءة فلا يدع ساعة من نهاره إلا ملأها بعمل حتى أيام الآحاد لم يدع فيها كتبه وأوراقه إلا ريثما يؤدي واجب الدين . وتتبين مما كتبه أحد ابنى أخته فيما بعد عن حياته وأخيه في بيت خالها أنه كان يأخذهما بالجد في غير هوادة ومن كان معهما من أبناء أصحابه ، ولكنا لا نتبين فيما كتب أن ملتن قد اهتدى إلى طريقة خاصة في التعليم أو أنه جرى على أسلوب اقتنع بسلامته وفائدته ، فكل ما ذكره ابن أخته لم يعدُ الكم ؛ فهو يباهي بأنهم قرأوا كثيرا وتعلموا كثيرا ...

بهذا الدأب وبهذه العزيمة أقبل ملتن على العمل بعد عودته من إيطاليا . على أن ابن أخته يذكر من أنباء تلك الأيام أن خاله كان ينصرف عن العمل كل ثلاثة أسابيع أو كل شهر مرة فيقضي يوما بين نفر من صحابته يستمتعون بالمرح واللهو البرىء .

وماذا كان يقرأ ملتن بعد أوبته من إيطاليا ؟ إنه اليوم شديد الولوع بالتاريخ وعلى الأخص تاريخ قومه ، وإن اللمحة التي داعبت خياله في إيطاليا عن تاريخ قومه أو الآرثريادة ليعاوده حلمها اليوم ويلح عليه . ولقد أشار إليها كما ذكرنا في مرثيته عن صديقه ديوداتي ؛ كما أنه أثبت كثيرا مما يتصل بها في كشكوله الذي اتخذه منذ إقامته في هورتون ليكتب فيه كل ما يعن له من الآراء والملاحظات ...

وأثبت ملتن في تلك الكراسة من الإشارات ما يدل على دراسة شؤون السياسة ، كالمسئلة المالية والضرائب والملكية والجمهورية وحرية الرأى وحرية النشر والقوانين والاستبداد ، وغيرها مما يتصل بأحوال عصره .

ولن يزال يقرأ ويتدبر ، ولن يزال يعتقد أنه لم يفرغ بعد من أهبته لما يجب أن ينهض له من عمل في دنيا الشعر ، نجد دليلا على ذلك في قوله إنه يسابر « ذلك التلقين الباطني الذي يزداد يوما بعد يوم فيوحي إلى أنه بالجد والدراسة المقصودة وهو ما أعده حظي في هذه الحياة مضافا إلى ذلك ميل فطري قوى ، قد يتأتى لي أن أترك أثرا كتبته لمن يأتي بعدى من الأجيال فلا يدعونه إلى النسيان » .

وما عسى أن يكون ذلك الأثر ومتى ينهض له ؟ لعل الشاعر لم يكن أكثر بينة من أمره فيما يتصل بموضوع ذلك الأثر الخالد منه فيما يتصل بتاريخ البدء فيه ، فأن كراسته تنطوى على نحو مائة موضوع غير الآرثريادة وكثرتها تتصل بالدين ومسائله من عهد آدم وحواء والخروج من الجنة وما إلى ذلك مما يدل بكثرته وتنوعه على حيرة الشاعر بين ما يأخذ وما يدع ... كذلك حار ملتن بين العصور التي يختار واحدة منها لموضوعه ، أيتخذ له الملحمة على نحو ما فعل هوميروس ودانتى ، أم يتخذ له الدراما ؛ أم يترك هذه وتلك إلى سلسلة من الأناشيد مثل أناشيد بندار ،

فلكل من هذه الصور مميزاته ومحاسنه ، ولعل مرد حيرته فى اختيار الصورة إلى أنه لم يحدد الموضوع ، إذ أن الموضوع فى الواقع هو الذى يعين الصورة التى يؤدى فيها .

ومهما يكن من أمر هذه الحيرة فقد قدر على الشاعر أن يدع قيثارته جانبا نحو عشرين سنة لم يكن له فيها أداة إلا النثر اللهم إلا مقطوعات قليلة نفس بها عن صدره فى بعض المناسبات .

***

اجتمع البرلمان الطويل فى نوفمبر سنة ١٦٤٠ ، وقدم إليه مقترح الأصل والفرع ، ذلك المقترح الذى ثمر له البيوريتانز ، وأرادوا به القضاء على النظام الأسقفى ، وتصدى لأصحاب هذا المقترح فريق من المؤيدين للنظام الأسقفى ومن المثقفين من التطرف فى الدين والسياسة الذين آثروا الوقوف إلى جانب الملك ودب الخلاف على هذا النحو بين أعضاء البرلمان .

وانتقل الخلاف إلى خارج البرلمان فانقسم الناس فريقين : أنصار البيوريتانز ، وأشياع الملك وكبير الأساقفة

وظهر الجانب السياسى من تفكير البيوريتانز يومئذ فى وضوح ، وأخذوا يشيعون آراءهم فى الناس ؛ فالناس جميعاً أمام الله سواء ، ولا يكون الخوف إلا من الله وحده ، والعدالة الاجتماعية وإقرار الحق فى كل أمرهما دعامتا المجتمع الأساسيتان إلى غير ذلك من الآراء الحرة التى تناهض الاستبداد والطغيان .

أما فى الدين ، فلم يبرح البيوريتانز يعلنون مقتهم لكنيسة روما وللنظام الأسقفى وازدراءهم لها ، وما برحوا كذلك ينسبون إلى القساوسة أنهم هم الذين يوحون إلى الملك طغيانه وعلى الأخص كبيرهم وليم لود ، وراحوا يذيعون أن لا حاجة بالناس إلى أخذ الدين عن القساوسة ، فلكل امرئ الحرية أن يتفقه فى دينه مستعيناً بكلام الله ، وإذاً فلم لا يستغنى الناس عن الأساقفة ولم يعد لهم ما سلف من خطر ؟

وتمسك لود وحزبه بوجوب طاعة الملك ، وأعلنوا أن لا غنى للدولة عن النظام الأسقفى ، وأن الكنيسة هى دعامة الملك والمجتمع . فإذا قضى عليها شاعت الفوضى فى كل شىء . وكان يعمل لود على العودة شيئاً فشيئاً إلى كنيسة روما فى روحها ونظامها ومظهرها ، وكان يحارب مبدأ كالفن فى القدر المحتوم ، ويعضد المبدأ القائل بالاختيار ، ويضطهد من يدعو إلى الاعتماد على الأنجيل وحده بغير رجوع إلى القس ، وأمعن لود فى الكيد للبيوريتانز ، واستعان بسلطة الدولة فأذاقهم سوء العذاب !

على أن فريقاً من المعتدلين وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء وإن كانوا قلة . ويرى هؤلاء المعتدلون أن المرء حر فيما يفكر فيه ، أو فيما يأتى من عمل ما دام يطيع الملك والقس . وكان ملتن أقرب إلى هؤلاء المعتدلين منه إلى متطرفى البيوريتانز ؛ فقد كان يرفض عقيدة القدر المحتوم ويؤمن بحرية الاختيار ، كما كان يحب التسامح ويدعو إليه . وخالف البيوريتانز فى تزمتهم ومبالغتهم فى الزهد والتقشف . وعنده أن المرء إذا وفى واجب الدين حقه ، واستمسك بالفضيلة فلا تحرم عليه زينة الله التى أخرج لعباده . وللناس أن يستمتعوا أيام الآحاد بما يشيع البهجة والمرح فى نفوسهم بدل أن يحشروا حشرا إلى الكنائس ويحملوا على البقاء فيها طويلا ...

ولكن ملتن أنكر بكل ما فى نفسه من حب للحرية على القساوسة تعصبهم واستبدادهم ، وألقى بقيثارته من يده على رغمه وخرج من عزلته ليبدأ ضد القساوسة كفاحا ثائرا عنيفا تجلى فيه كل ما فى طبعه من إنكار ومقت للتعصب ، وكل ما فى روحه من تمرد على الاستبداد وميل إلى نصرة الحرية .

(يتبع)

الخفيف

الطيب المطبوعات اللبنانية والسورية :

من جميع المكتبات المصرية ومن وكيل التوزيع — ن ٢٧ شارع الملكة فريدة — فى مكتب توفيق شلخت

فلسفة التشريع فى الإسلام : للدكتور صبحى محمصانى

تاريخنا : لأكرم زعيتر .

العرب : للدكتور فيليب حتى .

التعاون الثقافى بين الأقطار العربية : لعبد الله مشنوق

أبو تمام : للدكتور عمر فروخ .

إبن طفيل : للدكتور عمر فروخ

منهج البحث فى الأدب واللغة : للدكتور محمد مندور